

جامعة محمد الصديق بن يحيى-جيجل



كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم علم الاجتماع

محاضرات مقياس إستيمولوجيا الاتصال

موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر تخصص علم اجتماع الاتصال

دفعة 2025/2024

إعداد الأستاذ زيتوني محمد عادل

mohammedadil.zitouni@univ-jijel.dz

المحاضرة الأولى: مدخل إلى الإستمولوجيا: المفهوم، الأهمية وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية

مقدمة:

الإستمولوجيا Epistemology هي علم أو نظرية المعرفة، تهتم بدراسة طبيعة المعرفة ومصادرها ومعايير صدقها.¹ يعود أصل المصطلح إلى الكلمة اليونانية Episteme بمعنى "معرفة" و Logos بمعنى "دراسة أو علم". في هذه المحاضرة التمهيدية سنتعرف على مفهوم الإستمولوجيا ونوضح أهميته، خاصة في ميدان العلوم الاجتماعية، بالإضافة إلى استعراض علاقته بمنهجية البحث في تلك العلوم.

1- مفهوم الإستمولوجيا:

تعرف الإستمولوجيا بأنها فرع من الفلسفة ويُعنى بدراسة طبيعة ادعاءات المعرفة وكيفية اكتسابها.² بعبارة أخرى، الإستمولوجيا هي دراسة المعرفة ذاتها: ماهيتها، شروط صحتها ومصادرها. ويشير أحد التعاريف إلى أنها تفكير في المعايير التي يجب أن تلتزم بها أي معرفة حقيقية.³ ووفقا لتعريف آخر، يمكن فهم الإستمولوجيا على أنها دراسة للعلم بشكل عام بهدف التأمل فيما يميز المعرفة العلمية عن غيرها من أنماط المعرفة.⁴ ومن الجدير بالذكر أن مفهوم الإستمولوجيا في التقليد الفرنسي يرتبط بفلسفة العلوم (أي دراسة مبادئ العلوم ومنهجيتها)، في حين أن التقليد الأنجلوساكسوني يوسع المفهوم ليشمل نظرية المعرفة عموما بما يتجاوز نطاق العلوم البحتة.⁵

وتركز الإستمولوجيا على طبيعة المعرفة وكيفية تمييز المعرفة الحقيقية عن الاعتقاد أو الرأي. ومدى أو حدود المعرفة البشرية، أي ما الذي يمكننا معرفته حقا وكيف؟⁶ فهي تبحث في شروط اليقين المعرفي وكيفية اكتساب المعرفة إما عبر العقل (المعرفة القبلية) أو التجربة (المعرفة البعدية).⁸⁷ ومن ضمن التساؤلات الكلاسيكية التي تثيرها: هل هناك معارف يقينية؟ هل بعض الأشياء لا يمكن معرفتها أبدا؟ وكيف يؤثر الشك (السفسطائية) في نظرتنا للمعرفة؟⁹

2- أهمية الإستمولوجيا:

تنبع أهمية الإستمولوجيا من دورها في فهم أسس المعرفة العلمية وضبط عملية إنتاج المعرفة. إنها تزود الباحثين بإطار نقدي للتساؤل حول مصداقية ما يعتبرونه حقائق. على المستوى العام، تساعدنا الإستمولوجيا في التمييز بين المعارف العلمية والمعارف غير العلمية والمعتقدات والآراء الشخصية. وتعنى الإستمولوجيا بضمان أن تكون المعرفة "كافية ومشروعة"، وذلك بالنظر فيما يشكل إدعاء معرفيا صالحا وكيف يُبرر.¹⁰ وبدون هذا التفكير الإستمولوجي، قد نقع فريسة لادعاءات زائفة أو معتقدات غير مبررة.

وفي سياق البحث العلمي، تشكل الإيستيمولوجيا أساسا فلسفيا لتصميم البحوث وتقييمها. فهي تحدد معايير الموضوعية والصدق التي يجب أن تتوافر في أي دراسة. على سبيل المثال، بفضل الإيستيمولوجيا ندرك ضرورة التمييز بين الحقيقة والتبرير في نتائج البحوث، أي التفريق بين صدق النتائج وبين كيفية تبريرها.¹¹ كما أن النقاشات الإيستيمولوجية أدت إلى تطوير مناهج مختلفة (كالمناهج الكمية مقابل النوعية)، مما يثري طرقنا في تحصيل المعرفة. ويذهب بعض العلماء إلى القول بأن لكل مجال علمي إيستيمولوجيته الخاصة تبعا لطبيعة موضوعه.¹² وهذا يعني أن أهمية الإيستيمولوجيا تتضاعف مع تعقد موضوعات الدراسة، كما هو الحال في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

3- الإيستيمولوجيا والعلوم الاجتماعية:

تواجه العلوم الاجتماعية تحديات إيستيمولوجية خاصة. فعلى عكس الظواهر الطبيعية، يكون موضوع الدراسة في العلوم الاجتماعية هو الإنسان ومجتمعه، أي أن الباحث نفسه جزء من الظاهرة التي يدرسها. لقد أدركت العلوم الاجتماعية، منذ نشأتها في القرن التاسع عشر، الحاجة الملحة للإيستيمولوجيا نظرا لطبيعة موضوعها.¹³ فمن جهة، الظواهر الاجتماعية معقدة ومتغيرة وصعبة القياس بدقة، ومن جهة أخرى الباحث الاجتماعي هو أيضا عضو في المجتمع الذي يدرسه. هذا الوضع يخلق ما يسمى بإشكالية الذاتية: كيف ندرس المجتمع بموضوعية في حين أننا جزء منه؟ لذا تزداد الحاجة إلى التأمل الإيستيمولوجي لضبط الانحيازات ومعالجة التحديات المنهجية الخاصة بهذه العلوم.¹⁴

وتتمثل علاقة الإيستيمولوجيا بالعلوم الاجتماعية أيضا في توفير إطار لفهم مناهج البحث الاجتماعي ومنطلقاتها الفلسفية. فمثلا، ظهر في علم الاجتماع تياران إيستيمولوجيان كبيران: التيار الوضعاني Positivism الذي تبني نموذج علوم الطبيعة سعيا وراء قوانين عامة للمجتمع، والتيار التفسيري Interpretivism الذي رأى ضرورة فهم المعاني والدلالات السياقية التي يحملها الفعل الاجتماعي. لكل من هذين التيارين أسس إيستيمولوجية مختلفة: الأول يؤمن بإمكانية الموضوعية التامة والقياس الكمي للظواهر الاجتماعية، بينما يؤكد الثاني على حتمية الذاتية ودور تفسير الباحث في فهم الظواهر. الإيستيمولوجيا هنا تساعد في كشف افتراضات كل تيار وحدود معرفته، مما يمكن الباحثين من اتخاذ مواقف واعية عند تبني منهجية معينة.

إضافة إلى ذلك، تتداخل الإيستيمولوجيا مع سوسيولوجيا المعرفة في العلوم الاجتماعية، حيث ندرس كيف تؤثر البنى الاجتماعية والثقافية في تشكيل المعرفة ذاتها. من الأمثلة الكلاسيكية على ذلك أعمال عالم الاجتماع Peter Berger وزميله Thomas Luckmann حول البناء الاجتماعي للواقع. حيث أوضحا أن ما نعتبره "واقعا" في حياتنا اليومية هو نتاج تفاعلات اجتماعية وتراكم معارف مشتركة بين الناس.¹⁵ مثل هذه

الدراسات تقع على التقاطع بين علم الاجتماع والإبستمولوجيا، حيث ينظر إلى المجتمع على أنه مصنع لإنتاج المعرفة، مما يعزز فهمنا لدور السياق الاجتماعي في تحديد ما نعرفه ونؤمن بصحته.

خاتمة:

تمثل الإبستمولوجيا مدخلا أساسيا لفهم العلم والمعرفة، فهي تزودنا بالأدوات المفاهيمية لنقد وتحسين عملية إنتاج المعرفة. وتكتسب الإبستمولوجيا في العلوم الاجتماعية أهمية مضاعفة نظرا لتعقيد موضوعها وتشابك ذاتية الباحث مع موضوع البحث. لذلك تساعد الإبستمولوجيا على إدراك الأسس الفلسفية لمناهج البحث المختلفة، وطرح أسئلة نقدية حول ماهية المعرفة المنتجة ومدى موثوقيتها. بهذه الرؤية الواعية، يصبح الباحث الاجتماعي أكثر قدرة على إجراء دراسات رصينة وموثوقة، تدرك حدودها، وتسهم بشكل فاعل في تطوير المعرفة العلمية حول الإنسان والمجتمع.

المحاضرة الثانية: الإبستمولوجيا والاتصال: طبيعة المعرفة في حقل الاتصال

مقدمة:

ترتبط دراسات الاتصال بجذور فلسفية وإبستمولوجية عميقة، نظرا لكون الاتصال الإنساني ظاهرة متعددة الأبعاد وتتداخل في دراستها تخصصات مختلفة (علم الاجتماع، علم النفس، الإعلام، اللسانيات وغيرها). يعني ذلك أن طبيعة المعرفة في حقل الاتصال كانت موضع نقاش مستمر حول إمكانية دراسة الاتصال بشكل موضوعي كظاهرة قابلة للقياس، أم أن فهمه يتطلب منهجية تفسيرية ذاتية تراعي السياق والمعنى؟ في هذه المحاضرة سنستكشف طبيعة المعرفة في بحوث الاتصال من منظور إبستمولوجي، بما يشمل الأسس الفلسفية التي يقوم عليها البحث في الاتصال، وخصائص المعرفة المنتجة في هذا المجال.

1- الأساس الإبستمولوجي لبحوث الاتصال:

كل بحث علمي في الاتصال، سواء كان كميا أو كيفيا، يستند ضمنا إلى مواقف إبستمولوجية معينة. فالإبستمولوجيا هي التي تشكل الأساس الفلسفي لفهم المعرفة في بحوث الاتصال.¹⁶ على سبيل المثال، الباحث الذي يتبنى منظورا وضعانيا يفترض أن المعرفة في الاتصال يمكن اكتسابها عبر الملاحظة المحايدة والقياس، وأنه يمكن التحقق من صحة الفرضيات عبر منهج علمي صارم. في المقابل، الباحث التأويلي ينطلق من أن فهم المعنى في عمليات الاتصال يستلزم مشاركة الباحث في تفسير الرموز والسياقات، وبالتالي فإن المعرفة المتحصلة ستكون نسبية تعتمد على منظور الباحث والمشاركين معا.

ويوضح بعض المختصين أن الإبستمولوجيا في بحوث الاتصال تتناول أسئلة مثل: كيف نكتسب المعرفة حول عمليات الاتصال؟ وكيف نبرر ونوثق ادعاءاتنا المعرفية في هذا المجال؟¹⁷ وتشمل أيضا دراسة دور الباحث في بناء المعرفة: هل الباحث مجرد مراقب محايد ينقل "حقيقة" الاتصال كما هي (رؤية موضوعية)، أم أنه يتفاعل مع الظاهرة ويعيد بناء معناها (رؤية ذاتية)؟

2- طبيعة المعرفة في مجال الاتصال:

يمكن تلخيص طبيعة المعرفة في حقل الاتصال من خلال مناقشة ثنائية الموضوعية والذاتية والتي تعرف أيضا بثنائية الاكتشاف والبناء. فعندما نسأل: هل المعرفة في الاتصال مكتشفة أم مبنية؟ نكون قد دخلنا في صلب الإشكال الإبستمولوجي. الاتجاه الموضوعي يرى أن هناك حقائق وقوانين اتصالية موجودة هناك بانتظار أن نكتشفها بالتجربة والملاحظة المنظمة. في المقابل، يرى الاتجاه الذاتي أو الاجتماعي البنائي أن ما نسميه "معرفة اتصالية" هو نتاج تفاعل اجتماعي وثقافي، أي أننا نبني فهمنا للاتصال اجتماعيا ولغويا وليس هناك حقيقة اتصالية مطلقة منفصلة عن إدراكنا البشري.

بحسب الأدبيات الإستيمولوجية، يذهب الاتجاه الموضوعي إلى التأكيد بأن المعرفة موجودة بشكل مستقل عن وعي الأفراد ويمكن الوصول إليها عبر منهج علمي صارم.¹⁸ يُعبر عن هذا الموقف أحيانا بمصطلح الموضوعية العلمية، حيث يُنظر إلى الحقائق الاتصالية كأشياء يمكن قياسها واختبارها بمعزل عن تأثير قيم أو معتقدات الباحث. في المقابل، يطرح الاتجاه الذاتي أن المعرفة مستندة إلى خبرة الشخص وتفسيراته.¹⁹ وبذلك، كل باحث أو مشارك قد يفهم الرسالة الاتصالية بطريقة مختلفة وفق خلفيته وثقافته. المعرفة هنا تُرى على أنها بناء جماعي، فما نعرفه عن الاتصال يتشكل عبر الحوار والتفاوض في مجتمع الباحثين وبين الناس في الحياة اليومية.

3- تنوع المقاربات المعرفية في الاتصال:

لما كان الاتصال حقلا متداخلا مع العديد من العلوم، فقد تبنى الباحثون فيه مقاربات إستيمولوجية متنوعة أثرت على طبيعة المعرفة المنتجة. فهناك من اتبع النموذج الوضعاني، وسعى إلى تطبيق مناهج كمية تجريبية لقياس الظواهر الاتصالية والخروج بتعميمات وقوانين.²⁰ هذا الاتجاه يعتبر المعرفة الاتصالية موضوعية إذا أمكن ملاحظتها وقياسها بشكل متكرر، مع الفصل التام بين الباحث وموضوع البحث لضمان الحياد. وعلى النقيض، نجد المنظور الفهمي الذي يرى أن جوهر الاتصال هو تبادل المعاني وبالتالي لا يمكن فهمه إلا من خلال الدخول في سياق التواصل وتفهم وجهات نظر المشاركين.²¹ المعرفة هنا نوعية، خاصة بالسياق، وتركز على التعمق في فهم الدلالات بدلا من محاولة الوصول إلى قوانين عامة.

هناك أيضا المنظور النقدي الذي انبثق من مدرسة فرانكفورت وغيرها، ويضيف بعدا آخر لطبيعة المعرفة في الاتصال، إذ يعتبر أن المعرفة ليست بريئة أو محايدة بالضرورة، بل مرتبطة بالسلطة والقيم الاجتماعية.²² من هذا المنطلق، تُوظف بحوث الاتصال لكشف إيديولوجيات الهيمنة في وسائل الإعلام وثقافة الجماهير، وتهدف المعرفة إلى التحرر والتغيير الاجتماعي وليس مجرد الفهم والتفسير. هذا منظور مختلف لطبيعة المعرفة، حيث تصبح أداة نقدية لكشف التشوهات الاتصالية في المجتمع (مثل هيمنة ثقافة الاستهلاك أو خطاب الدعاية... إلخ).

وأخيرا، ظهر في العقود الأخيرة توجه إستيمولوجي ما بعد حدثي في بعض دراسات الاتصال، يمزج بين التفكيك والشك في السرديات الكبرى. هذا التوجه يعتبر المعرفة في الاتصال متعددة الأصوات وبدون حقيقة واحدة مطلقة، فالحقيقة تتفتت إلى وجهات نظر، وكل خطاب إعلامي قد يحمل تحيزات لاشعورية ينبغي تفكيكها ونقدها.²³

خاتمة:

باختصار، طبيعة المعرفة في حقل الاتصال ليست أحادية البعد، فهي تتأثر بالمنظور الإستمولوجي الذي يعتمد عليه الباحث. قد تُعامل المعرفة الاتصالية كمعطيات موضوعية يمكن قياسها والتنبؤ بها، وقد تُعامل كمعان سياقية ينبغي تفسيرها، أو كخطابات تتضمن علاقات قوة يجب نقدها. هذا التنوع يثري دراسات الاتصال ولكنه يتطلب من الباحث وعيا فلسفيا بمنطلقات كل اتجاه. فالإدراك بأن أبحاث الاتصال تركز على افتراضات إستمولوجية (سواء صرح الباحث بذلك أم لا) يساعدنا على فهم لماذا تختلف نتائج الدراسات أحيانا باختلاف منهجياتها. إن امتلاك هذا الوعي يمكن الباحثين من اختيار المنهج المناسب لسؤالهم البحثي وتبرير اختياراتهم بشكل منهجي رصين، مما يساهم في تقدم معرفتنا العلمية حول الاتصال بطرق أكثر دقة وشفافية.

المحاضرة الثالثة: المفاهيم الأساسية في فلسفة العلوم: الواقع، الحقيقة والمعرفة

مقدمة:

تداول فلسفة العلوم بعض المفاهيم المتداخلة التي تشكل أساس أي نقاش إبستمولوجي، لعل من أهمها: الواقع، الحقيقة، والمعرفة. فعندما نبحث في واقع ظاهرة اتصالية ما، فإننا نتساءل عما إذا كانت هناك حقيقة موضوعية يمكن الوصول إليها حول تلك الظاهرة، وكيف يمكن أن ندعي أننا نعرف شيئا يقينا بشأنها. في هذه المحاضرة سنستعرض هذه المفاهيم تباعا: ما المقصود بالواقع؟ وما تعريف الحقيقة في السياق العلمي؟ وكيف تُعرف المعرفة عموما؟ كما سنناقش باختصار تداخل هذه المفاهيم ضمن فلسفة العلوم.

1- مفهوم الواقع:

في فلسفة العلوم، يشير مفهوم الواقع إلى كل ما يوجد بشكل مستقل عن إدراكنا البشري. هذا المفهوم يرتبط بما يسمى الأنطولوجيا (علم الوجود) التي تتساءل: ما طبيعة الوجود وما الذي يوجد فعلا؟ وهناك جدل فلسفي طويل حول ما إذا كان هناك واقع موضوعي مطلق أم أن ما نعتبره واقعا مشروط بوعينا وثقافتنا. يدافع الاتجاه الواقعي Realism عن أن هناك عالما واقعيا مستقلا عن العقل، موجود بذاته سواء أدركناه أم لا.²⁴ وفق هذا المنظور، مهمة العلم هي اكتشاف هذا الواقع وقوانينه كما هي. في المقابل، يرى الاتجاه النسبي/البنائي Relativism/Constructionism أن الواقع ليس ثابتا بل يتشكل أو يتلون عبر العقول البشرية والتفاعلات الاجتماعية.²⁵ بعبارة أخرى، الواقع الاجتماعي خاصة قد يختلف باختلاف الثقافات والأطر المفاهيمية، فما هو "حقيقي" لشخص ما قد لا يكون كذلك لآخر.

في العلوم الطبيعية، يميل الباحثون غالبا إلى افتراض واقعية صارمة (مثلا وجود ذرات أو موجات كهرومغناطيسية بغض النظر عن ملاحظتنا لها). أما في العلوم الاجتماعية، فهناك إدراك متزايد بأن الواقع الاجتماعي مبني اجتماعيا، يتوافق ذلك مع نظرية البنائية الاجتماعية التي تشير إلى أن كثيرا من جوانب الواقع (كالمؤسسات، الأدوار الاجتماعية) هي نتاج بناء اجتماعي توافقي.²⁶

وفي سياق فلسفة العلوم، لا بد أيضا من التمييز بين الواقع التجريبي (الظاهري) الذي نستطيع رصدده بالحواس وأدوات القياس، والواقع الكامن الذي قد يكون خفيا وراء الظواهر. فبعض فلاسفة العلم، مثل Karl Popper و Gaston Bachelard، يشيرون إلى أن العلم يهدف إلى تجاوز الظواهر للوصول إلى بنية الواقع العميقة، مثل الإلكترونات كواقع كامن وراء ظواهر فيزيائية. بينما في العلوم الاجتماعية، يكون التركيز أكثر

على فهم الواقع الاجتماعي كما يظهر في تفاعلات الناس وخطاباتهم، مع محاولة الانتباه أيضا إلى قوى كامنة (كالبنى الاقتصادية أو الأيديولوجية) التي قد تشكل ذلك الواقع الاجتماعي.

2- مفهوم الحقيقة:

تعتبر الحقيقة مفهوما مركزيا آخر يُقصد به مطابقة المعرفة أو الحكم للواقع.²⁷ ويشير التعريف التقليدي للحقيقة في الفلسفة أنها مطابقة المعرفة أو القول للواقع أو لما هو موجود فعلا. فإذا قلت "درجة حرارة الغرفة 20°" وهي بالفعل درجة الحرارة الفعلية، يكون حكمي صادقا أو حقيقيا. بهذا المعنى، الحقيقة هي خاصية للعبارات أو القضايا، وليست للواقع مباشرة. نحن نقول "هذه العبارة صادقة" بمعنى أنها تعكس واقعا صحيحا.²⁸

وإلى جانب نظرية المطابقة، توجد نظريات مختلفة للحقيقة في فلسفة العلوم، أشهرها نظرية الاتساق التي ترى أن الحقيقة هي اتساق قضية ما مع مجموعة من القضايا الأخرى (أي كونها لا تتعارض مع منظومة معارف متماسكة)، وكذلك النظرية البراجماتية التي تربط الحقيقة بما ينفع عمليا ويؤدي إلى نتائج ناجحة. وفي العلوم، عادة ما يتبنى الباحثون ضمنا نظرية المطابقة: فهم يفترضون أن نماذجهم أو بياناتهم صادقة إذا كانت تطابق الواقع التجريبي أو تتنبأ به بدقة.²⁹ ولكن أحيانا تُطرح تساؤلات إبستمولوجية: هل تمثل نظرياتنا العلمية الواقع حقا أم أنها مجرد نماذج تقريبية؟ بينما أشار بعض الفلاسفة أن الحقيقة العلمية نفسها نسبية تاريخيا وثقافيا، فما اعتبره العلماء حقيقة في الماضي (كاعتقاد أرسطو بمركزية الأرض) تغير مع الوقت.

3- مفهوم المعرفة:

بشكل مبسط، يمكن تعريف المعرفة بأنها الاعتقاد الصادق المبرر. هذا التعريف التقليدي (الذي يعود إلى أفلاطون) يشير إلى أن المرء يعرف شيئا ما إذا كان أولا يعتقد به، وثانيا هذا الاعتقاد صحيح (صادق) في الواقع، وثالثا لديه مبررات أو أدلة كافية لهذا الاعتقاد.³⁰ على سبيل المثال، إذا كنت أعتقد أن هاتفك في الحقيبة، وصحيح أنه في الحقيبة، ولدي سبب وجيه لهذا الاعتقاد لأنني رأيتك تضعه هناك، عندها يمكن القول إنني أعرف أن هاتفك في الحقيبة. أما إذا كان اعتقادي صحيحا لكنه بلا مبرر (محض صدفة)، فلا يعتبر معرفة بالمعنى الدقيق.

وتتنوع المعرفة بين معرفة ضمنية (مهارية) مثل معرفة كيفية قيادة السيارة، ومعرفة صريحة (تصريحية) وهي معرفة حقائق ومعلومات. والإبستمولوجيا تركز غالبا على المعرفة التصريحية لأنها موضع الاختبار والتداول العلمي.³¹ المعرفة العلمية خصوصا تتميز بأنها ممنهجة ومبنية على أدلة. وهي تتوسع باستمرار من خلال البحث. ومن سمات المعرفة العلمية أيضا قابليتها للتصحيح؛ فهي ليست مطلقة أو نهائية بل تخضع

دوما لإعادة النظر مع ظهور أدلة أو تفسيرات جديدة. وهذا ما قصده كارل بوبر حين وصف العلم بأنه عملية تكذيب وتخطيء مستمر للمعارف السابقة للوصول إلى معارف أدق³².

وفي سياق فلسفة العلوم وعلم الاجتماع، يُنظر أيضا في البعد الاجتماعي للمعرفة. هناك حقل يسمى الإستيمولوجيا الاجتماعية يهتم بكيفية تأثر معرفتنا كمجتمع بعمليات التواصل والتعاون والتنسيق بين الأفراد³³. فالمعرفة لا تتكون فقط في عقل الفرد، بل يتم بناؤها وتوزيعها عبر شبكات اجتماعية ومؤسسات (كالجامعات والمختبرات العلمية أو وسائل الإعلام في حالة المعرفة العامة). وقد أشار بيتر برجر وتوماس لوكمان إلى أن جانبا كبيرا مما نعرفه هو في الواقع ما "يعتقد الجميع أنه صحيح" في مجتمعنا، أي معرفة مشتركة تسمى "مخزون المعرفة الاجتماعي"³⁴. هذه الأفكار تربط مفهوم المعرفة بالواقع الاجتماعي والحقيقة: فالمعرفة الاجتماعية تتضمن قدرا من الاتفاق الجماعي على ما يعد حقيقيا وواقعيا.

خاتمة:

تشكل مفاهيم الواقع والحقيقة والمعرفة الركائز الأساسية لأي نقاش إستيمولوجي. فالواقع يشير إلى الوجود كما هو، سواء كان مستقلا عن إدراكنا (وفق الواقعيين) أو مبنيا من خلاله (وفق البنائيين). والحقيقة هي خاصية أحكامنا عندما تعكس ذلك الواقع بأمانة. ورغم تعدد تصورات الحقيقة، يظل تطابق الحكم مع الواقع معيارا جوهريا في العلوم³⁵. أما المعرفة فهي حصيلة تلاقي الواقع مع الذهن البشري عبر قنوات الإدراك والتفكير³⁶. وفي العلوم الاجتماعية والاتصال، تتخذ هذه المفاهيم أبعادا معقدة، فالواقع الاجتماعي متعدد الطبقات، والحقيقة قد تتلون بالسياق والمعنى، والمعرفة عملية اجتماعية بقدر ما هي فردية. وإدراك هذه التشابكات يساعد الباحث على تبني موقف فلسفي متزن عند تحليل الظواهر، فلا يكتفي باعتبار معطياته واقعا مطلقا، ولا يذهب إلى إنكار وجود أي حقيقة أو معرفة مشتركة. بدلا من ذلك، يفهم الحدود والاحتمالات، ويسعى لبناء معرفة علمية موثوقة مع وعيه بما يكتنف مفاهيم الواقع والحقيقة من تحديات فلسفية.

المحاضرة الرابعة: الوضعانية في دراسة الاتصال: أسسها ونقدها

مقدمة:

شهدت بدايات بحوث الاتصال (خصوصا في منتصف القرن العشرين) هيمنة واضحة للنموذج الوضعاني Positivist الذي يعكس إيمانا عميقا بأن المنهج العلمي التجريبي قادر على كشف قوانين عامة تحكم السلوك الاجتماعي كما يحكم قوانين الطبيعة. في هذه المحاضرة سنتعرف أولا على أسس الوضعانية ومنطلقاتها الفلسفية، ثم نستعرض كيفية تطبيقها في دراسة الاتصال. بعد ذلك ننتقل إلى نقد الوضعانية، سواء من داخل العلوم الاجتماعية أو من المناهج البديلة (كالتأويلية والنقدية)، حيث تبين محدودية هذا المنظور عند تناوله لظواهر إنسانية معقدة كالتواصل الإنساني.

1- أسس الوضعانية في العلوم الاجتماعية:

تعتبر الوضعانية مدرسة فلسفية تعود جذورها لـ Auguste Comte في القرن التاسع عشر، وترتكز على فكرة أن العلم يجب أن يركز فقط على الظواهر القابلة للملاحظة والتجربة وأن يتجنب الخوض في التفسيرات الميتافيزيقية أو الأسئلة الوجودية غير القابلة للاختبار.³⁷ وقد قسم كونت تاريخ الفكر إلى ثلاث مراحل (لاهوتية، ميتافيزيقية، وضعية) ورأى أن الفكر الوضعاني أو العلمي هو قمة النضج الفكري.³⁸ وقد طبق بنفسه هذه الرؤية على علم الاجتماع، داعيا إلى إنشاء "فيزياء اجتماعية" تبحث عن قوانين تحكم الظواهر الاجتماعية تماما كما تبحث الفيزياء عن قوانين الطبيعة.³⁹

وتشمل الأسس الوضعانية ما يلي:

- أ- الإمبريقية: أي أن المعرفة لا تأتي إلا من التجربة الحسية والملاحظة المنهجية. فهي تؤمن بأن البيانات الحسية هي المصدر النهائي للتحقق.⁴⁰
- ب- التجريبية: لا تعتبر قضية ما علمية إلا إذا كان بالإمكان اختبارها تجريبيا وإثباتها أو دحضها.⁴¹
- ت- البحث عن القوانين: الهدف هو صياغة قوانين عامة (علاقات سببية أو ارتباطية ثابتة) بين الظواهر.⁴² مثلا: قد يسعى الباحث الوضعاني في الاتصال لصياغة قانون حول تأثير حجم التعرض لوسائل الإعلام على معرفة الجمهور.
- ث- الموضوعية: حيث يفترض أنه يمكن للباحث الوصول لملاحظة محايدة تماما دون التأثير بقيمه الشخصية، وبالتالي فإن الحقائق العلمية موضوعية وخالية من الأحكام المسبقة.⁴³

ج- وحدة المنهج العلمي: يعتقد الوضعيون أن مناهج علوم الطبيعة قابلة للتطبيق على العلوم الاجتماعية بنفس الفاعلية.⁴⁴ أي لا اختلاف جوهري بين دراسة الطبيعة ودراسة المجتمعات، فكلاهما يجب أن يُدرس باستخدام أدوات منهجية دقيقة وصارمة.

2- تطبيقات التوجه الوضعاني في بحوث الاتصال:

ظهر تأثير الفلسفة الوضعانية جليا فيما يُعرف ببحوث الاتصال الجماهيري الكلاسيكية. على سبيل المثال، دراسات التأثيرات الإعلامية (كدراسة سلوك التصويت بتأثير الدعاية الانتخابية، أو تأثير الأفلام على سلوك الأطفال) اتبعت تصميمات بحثية صارمة: عينات كبيرة، استبيانات مغلقة، إحصاءات لقياس الارتباطات. وكان الهدف تقديم نتائج قابلة للتعميم على جمهور واسع، تماما كما تعمم قوانين الفيزياء.⁴⁵ وافترض الباحثون أن الجمهور يتفاعل مع الرسائل الإعلامية بشكل منتظم وقابل للتوقع، فمثلا زيادة جرعة التعرض لرسالة إقناعية معينة ستؤدي (مع ثبات العوامل الأخرى) إلى زيادة نسبية في احتمال الاقتناع.⁴⁶

ويمكن القول إن الوضعانية جعلت بحوث الاتصال أكثر نظامية ومنهجية في تلك الفترة، وأسهمت في تطوير أدوات قياس (استبيانات، مقاييس.....الخ). لكنها أيضا اختزلت الظاهرة الاتصالية في أرقام ومعدلات، متغاضية عن كثير من أبعادها النوعية.

3- نقد الوضعانية في دراسة الاتصال

رغم نجاحات المدخل الوضعي في إضفاء صبغة "علمية" على بحوث الاتصال، إلا أنه تعرض لنقد واسع من زوايا مختلفة. ومن أبرز الانتقادات أن الوضعانية تبسط الظواهر الاجتماعية والتواصلية بشكل مفرط، فهي تفترض إمكانية دراسة الظاهرة الاتصالية كما ندرس العالم الطبيعي، متجاهلة أن لدى الأفراد معاني ذاتية قد لا تُرصد بالأرقام. كما يجادل التأويليون أن الوضعانية تهمل سياق المعنى. فمثلا، في دراسة تأثير رسالة إعلامية، لا يكفي قياس التغير في سلوك الجمهور كميًا، بل يجب فهم كيف يؤول الجمهور الرسالة. فالوضعانية التقليدية بعيدة عن أسئلة المعنى لأنها لا تملك أدوات لفهمه (المعنى غير قابل للقياس المباشر). بالتالي، انتُقدت الوضعانية بأنها تُغفل الجانب الفهمي والسياقي للاتصال، كاختلاف تأويلات الناس للرسالة نفسها حسب ثقافتهم وتجاربهم.

كما ظهر توجه ما بعد الوضعية Post-positivism الذي يعترف بمعظم انتقادات الوضعانية. فالباحث ما بعد الوضعي يعترف بعدم إمكانية تحقيق موضوعية كاملة وأن هناك دوما درجة من التحيز البشري⁴⁷. لذا يركز على تقليل التحيز بدلا من افتراض غيابه، كما يمزج بين المنهج الكمي والكيفي، ويكون أكثر تواضعا حيال تعميم النتائج. هذه الاستجابة كانت محاولة للإبقاء على مزايا الوضعانية (الدقة، المنهجية) مع تجنب

عيوبها. وقد أثرت ما بعد الوضعية على بحوث الاتصال المعاصرة التي أصبحت أكثر مرونة واعترافا بتعقيد الظواهر.

خاتمة:

شكلت الوضعية مرحلة مهمة في تطور بحوث الاتصال بإرسائها معايير البحث العلمي التجريبي والسعي لصياغة تعميمات وقوانين. وقدمت لنا أدوات كمية ومنهجيات صارمة ما زالت ذات قيمة حتى اليوم. لكن تبنيها بشكل حصري كشف عن حدود مهمة، فقد عانت من تبسيط اختزالي للظواهر الاتصالية، وأغفلت البعد الذاتي والمعنوي العميق للاتصال الإنساني. مما أجبر الباحثين على توسيع آفاقهم الإستيمولوجية والاعتراف بأن منهجا واحدا لا يكفي لفهم عملية معقدة كالاتصال. واليوم، تستفيد بحوث الاتصال من دروس الوضعية ونقدها معا، فنجد مناهج تجمع بين الكم والكيف، واعترافا بأن الظواهر الاتصالية معقدة، بعضها قابل للقياس التجريبي والكمي، وبعضها يتطلب فهما نوعيا عميقا.

المحاضرة الخامسة: التأويلية والفهم في دراسات الاتصال: هرمنيوطيقا التواصل.

مقدمة:

بعد هيمنة المدخل الوضعي لوقت طويل، ظهر توجهات في دراسات الاتصال تؤكد على الفهم العميق والمعنى بدلا من التفسير السببي السطحي. لعل من أهمها ما تسمى بالتوجهات الفهمية والتأويلية Hermeneutics التي تُعنى بنظرية التفسير وفهم النصوص والخطابات والسياقات. في ميدان الاتصال، تعني الهرمنيوطيقا فهم عمليات التواصل على أنها عمليات تبادل للرموز ذات المعاني المتعددة، حيث يكون لكل مشارك تأويله الخاص. في هذه المحاضرة سنعرف التأويلية بإيجاز ونشرح منطلقاتها، ثم نركز على هرمنيوطيقا التواصل: كيف يُطبق منهج التفسير في دراسات الاتصال لفهم أعمق للرسائل الإعلامية والتفاعلات التواصلية، وما يميز هذا المنهج عن المنهج الوضعي. كما سنناقش بإيجاز إسهامات مفكري التأويلية مثل Friedrich Schleiermacher و Hans-Georg Gadamer في توضيح منهج الفهم، وكيف أثر ذلك على بحوث الاتصال.

1- الهرمنيوطيقا: مفهومها وتطورها

يعود أصلها لتفسير النصوص الدينية والأدبية، ثم توسع ليشمل فلسفة عامة للفهم الإنساني. الكلمة مشتقة من الإله اليوناني "هرميس" رسول الآلهة ومفسر رسائلهم، وقد ركزت في البداية على قواعد تفسير النصوص (مثلا: فهم النصوص المقدسة ضمن سياقها التاريخي واللغوي). ثم في القرن التاسع عشر مع أعمال Schleiermacher الذي أكد على عمليتين: التفسير اللغوي (فهم معاني الكلمات ضمن قواعد اللغة) والتفسير النفسي (محاولة فهم نوايا المؤلف وحالته الذهنية).⁴⁸ وفي القرن العشرين، وسع Martin Heidegger ثم Gadamer التأويلية لتصبح فلسفة وجودية: حيث كل فهم هو تأويل، ونحن دائما منغمسون في عملية فهم مستمرة للعالم من حولنا. جادامر تحديدا رأى أن الفهم هو حوار بين المفسر والنص (أو الظاهرة)، وأننا نحمل تحيزاتنا المسبقة معنا في هذه العملية، ولكن يمكن تحويلها لإثراء الفهم بدل أن تكون عائقا.

2- هرمنيوطيقا التواصل:

عند تطبيق مبادئ التأويلية على الاتصال، نحصل على ما يمكن تسميته هرمنيوطيقا التواصل: أي دراسة الاتصال بوصفه عملية تفسير وفهم متبادل للمعاني. يعني ذلك أن الباحث في الاتصال من المنظور التأويلي لا يهتم فقط بماذا قيل، بل بكيف فهم من قبل أطراف التواصل، وبالشروط الثقافية والاجتماعية

التي أثرت في ذلك الفهم.⁴⁹ فالاتصال هنا ليس مجرد إرسال شفرة ورسالة عبر قناة، بل هو حدث اجتماعي-ثقافي يحمل معاني مختلفة قد لا تكون واضحة بالملاحظة السطحية.

على سبيل المثال، إذا حللنا محادثة بين شخصين بمنظور هرمنيوطيقي، سنسأل: ما الذي قصده المتحدث فعلا؟ كيف فهم المستمع كلامه؟ ما السياق (تاريخي، ثقافي، شخصي) الذي أعطى هذه الكلمات معناها لكل منهما؟ نكتشف بسرعة أن المعنى ليس ثابتا ولا مضمنا بشكل مباشر في الألفاظ فقط، بل يتشكل عبر التفاعل والتأويل. هنا تساعدنا مفاهيم هرمنيوطيقية مثل "الدائرة التأويلية" التي تشير إلى أن فهم الجزء يعتمد على الكل، وفهم الكل يعتمد على أجزائه.⁵⁰ يعني ذلك أننا نفسر كلمة أو إشارة ضمن سياق الحوار ككل، وفي الوقت نفسه نفهم مجمل الحوار عبر تراكم فهمنا لكل عبارة فيه.

ومن خصائص منهج التأويلية في الاتصال أنه يولي اهتماما بالغا للسياق: فلا يمكن تفسير رسالة إعلامية مثلا دون فهم السياق الاجتماعي لمنتج الرسالة والجمهور المتلقي. كما يفترض أن المعاني ليست أحادية، فقد تحمل الرسالة الواحدة معاني متعددة لمتلقين مختلفين. لذا يقوم الباحث بتحليل كيف يبني الناس معاني الرسائل. على سبيل المثال، دراسة استقبال الجمهور لبرنامج تلفزيوني من منظور تأويلي قد تكشف أن جمهورا مختلفا يؤول مضمون البرنامج بطرق متباينة بحسب خلفيته (مثال: مجموعة فهمته على أنه نقد اجتماعي ساخر، وأخرى رآته ترفيها محضا). كل تلك التأويلات صحيحة بالنسبة لأصحابها، ويصبح هدف الباحث توثيق وفهم لماذا ظهرت هذه الاختلافات في الفهم.

كما أضافت الهرمنيوطيقا أن الباحث نفسه متداخل في عملية الفهم. فعندما ندرس ظاهرة اتصالية، نحن أيضا نقوم بتأويلها وفقا لأفاقنا المعرفية الخاصة. وقد أشار Gadamer إلى امتزاج الآفاق، حيث يلتقي أفق فهم الباحث بأفق النص/الظاهرة فينتج معنى جديد.⁵¹ وهذا يدعو الباحثين للاعتراف بتحيزاتهم ومحاولة الوصول إلى حوار خصب مع موضوع الدراسة بدل الادعاء بحياد كامل مستحيل. مثلا، الباحث الإثنوغرافي الذي يدرس تواصل جماعة ثقافية معينة، عليه أن يعترف أنه يُدخل منظوره في التفسير، لكن بالمقابل يمكنه عبر انفتاحه على ثقافة تلك الجماعة توسيع أفقه والتوصل لفهم أعمق مشترك.

المقارنة مع المنهج الوضعاني:

لاحظنا سابقا أن المنهج الوضعي كان معنيا بالقياس والتنبؤ، وغالبا ما يتعامل مع الرسائل الاتصالية كمحتوى يحمل معنى واحدا لدى الجميع يمكن قياس تأثيره بشكل خطي. في المقابل، يفترض المنهج التأويلي تعددية المعنى وعدم إمكانية اختزاله في رقم أو متغير واحد.⁵² فإذا سأل الوضعاني: "كم بالمئة من الجمهور فهم الرسالة X وتغير سلوكه؟"، يسأل التأويلي: "كيف فهم الجمهور الرسالة X؟ وما التنوع في استجاباتهم

ولماذا؟". الهدف بالنسبة للتأويلي ليس التعميم بقدر ما هو الوصف العميق والتفسير لحالة أو ظاهرة معينة.

خاتمة:

لقد أعادت هرمنيوطيقا التواصل الاعتبار للبعد الإنساني والفهمي في بحوث الاتصال. فمن خلال هذا المنهج، يُنظر إلى الاتصال كعملية ديناميكية لتبادل المعاني، تتطلب لفهمها الغوص في تصورات المشاركين وتأويلاتهم ضمن سياقات محددة. وهذا يكمل جوانب قصور المناهج الوضعية التي ربما رصدت التأثيرات أو الأنماط السلوكية ولكنها أغفلت سؤال المعنى. فبفضل المنهج التأويلي، أصبح لدى باحث الاتصال أدوات لفهم ظواهر مثل تأويل الجمهور للرسائل الإعلامية، وبناء المعنى في المحادثات، ودور الثقافة في تشكيل الفهم.⁵³ كما عزز هذا المنهج وعي الباحث بدوره وبتحيزاته، مما أدى إلى دراسات أكثر شفافية في عرض عملية البحث.

المحاضرة السادسة: البنائية الاجتماعية والإبستمولوجيا: الاتصال كبناء للواقع

مقدمة:

برز في النصف الثاني من القرن العشرين منظور إبستمولوجي مؤثر يُعرف بـ "البنائية الاجتماعية" Social Constructionism، ينظر إلى الواقع والمعرفة على أنهما نتاج تفاعل اجتماعي وليس مجرد معطيات موضوعية ثابتة. ينطبق هذا بشكل مباشر على الاتصال، حيث أن عملية التواصل نفسها تُعد من أهم الآليات التي من خلالها يبني البشر واقعهم الاجتماعي. في هذه المحاضرة سنشرح البنائية الاجتماعية وأهم أفكارها، ثم نوضح كيف ينطبق هذا المفهوم على حقل الاتصال، أي كيف تعتبر عمليات الاتصال (لغة وإعلاما وتفاعلات يومية) أدوات لبناء وتصوير الواقع المتفق عليه بين الناس. سنستند إلى أعمال رائدة مثل كتاب "البناء الاجتماعي للواقع" Luckmann و Berger، ونتناول أمثلة توضح الاتصال بوصفه بناء جماعيا للمعاني وصنعا للمعرفة المشتركة.

1- ما هي البنائية الاجتماعية؟

البنائية الاجتماعية هي اتجاه فكري يقول بأن الكثير مما نعتبره "واقعا" في حياتنا اليومية هو في الحقيقة "مبنى اجتماعيا"، أي تم إنشاؤه عبر العمليات الاجتماعية كالتفاعل واللغة والمؤسسات. ويميز برغر ولوكمان في كتابهما بين ثلاث مراحل: الإخراج Externalization والموضوعة Objectivation ثم الإدخال Internalization. في البداية يقوم الأفراد عبر التواصل والسلوكيات بابتكار عادات ومعاني معينة Externalization، ثم بمرور الوقت تصبح هذه المعاني "موضوعية" تبدو كأنها حقائق قائمة بحد ذاتها Objectivation، ثم يولد أفراد جدد في المجتمع فيتشربون هذه "الحقائق" عبر التنشئة الاجتماعية Internalization. وبهذا الشكل يصنع المجتمع ذاته باستمرار ويصبح منتوجه (الموضوع) مؤثرا على صانعيه (الذات). وقد لخص الكاتبان أطروحتهم بجملة شهيرة "المجتمع منتج إنساني، والمجتمع واقع موضوعي، والإنسان منتج اجتماعي".⁵⁴ هذا التعبير يؤكد الطبيعة الجدلية، فالبشر يصنعون المجتمع الذي يصبح واقعا مستقلا ظاهريا عنهم، ثم ذلك الواقع يؤثر في تكوين الأفراد أنفسهم.

على سبيل المثال، "النقود" ليست لها قيمة فيزيائية جوهرية، لكن المجتمع عبر التواصل والاتفاق الضمني يعطيها قيمة، فتصبح النقود "واقعا موضوعيا" نتعامل معه كأنه بديهي، ويكبر الطفل المولود ليرى المال شيئا حقيقيا ذا قيمة دون أن يدرك أن القيمة جاءت فقط من الاتفاق الاجتماعي. كذلك الأمر مع المؤسسات الاجتماعية (كالجامعة أو الدولة) التي تبدأ كتخيل أو اتفاق بين الناس ثم تستمر بالتواجد عبر الخطابات والممارسات اليومية حتى تبدو وكأنها كيانات حقيقية.

2- الاتصال بوصفه بناء للواقع:

يعد الاتصال الأداة الأساسية في عملية البناء الاجتماعي للواقع. من خلال اللغة والتواصل اليومي، نقوم بتسمية الأشياء وتصنيفها وتبادل التعريفات حولها. مثلاً، إطلاق تسمية محددة على ظاهرة اجتماعية كالتمنر، يساهم في بلورة فهم مشترك حولها ويجعلها جزءاً من الواقع المجتمعي المعترف به. يقول برغر ولوكمان إن اللغة هي مستودع المعرفة الاجتماعية، فهي التي تختزن وتتناقل الرصيد الاجتماعي للمعرفة الذي يشمل ما "يعرفه الجميع" عن العالم.⁵⁵ وبالتالي، كل تواصل لغوي هو في جوهره إسهام في تشكيل الواقع المشترك، فعندما نتحدث عن شيء ما فإننا نضفي عليه معنى ووجوداً في عالمنا الاجتماعي.

في سياق وسائل الإعلام، تطرح البنائية الاجتماعية أن الإعلام لا يعكس الواقع فقط بل يساهم في بنائه. على سبيل المثال، طريقة تغطية الأخبار وتركيب القصص الإخبارية قد تخلق لدى الجمهور تصوراً معيناً "للحقيقة". فنظريات مثل نظرية الأجندة (ترتيب الأولويات) تفيد بأن الإعلام يحدد للجمهور ما هي القضايا الواقعية المهمة عبر تكثيف التغطية عليها. وبهذا، يبدو أن الإعلاميون عبر اتصالهم بالجمهور يبنون واقعاً إدراكياً لدى الناس، كأن يجعلوا مشكلة ما تبدو أضخم مما هي عليه أو العكس.

كما درس الباحثون كيف أن المجموعات (مثل الجماعات المهنية أو الهويات الإثنية) تطور خطابات سردية مشتركة عن تاريخها وظروفها، وهذا السرد المشترك يصبح واقعاً متفقاً عليه داخل المجموعة. مثلاً: جماعة ما تروي قصة اضطهادها وانتصارها، فيتروخ ذلك كواقع تاريخي مشترك (بغض النظر عن دقته التاريخية الكاملة، فيصبح حقيقة اجتماعية لتلك الجماعة). هذه أمثلة تظهر قوة الاتصال في بناء الواقع.

3- المعرفة والواقع كنتاج اجتماعي:

ترتبط البنائية الاجتماعية أيضاً بسوسيولوجيا المعرفة، أي دراسة العلاقة بين المعرفة التي يمتلكها المجتمع وبين السياق الاجتماعي لتلك المعرفة.⁵⁶ وقد شدد برغر ولوكمان على أن ما يعد "معرفة" في مجتمع معين (سواء كانت معرفة علمية أو معتقدات عامة) هو جزء من البناء الاجتماعي للواقع. فالمجتمع لا يحدد فقط واقعنا الموضوعي بل أيضاً ما نعتبره معرفة صحيحة. مما ينهنا كباحثين إلى ضرورة الوعي بأن حقائقنا العلمية نفسها تتشكل ضمن مجتمع العلماء وعبر النقاش والتواصل فيما بينهم.⁵⁷

لقد استفادت البحوث الاتصالية من منظور البنائية الاجتماعية من خلال التركيز على كيفية تشكل المعاني والوقائع من خلال التفاعلات التواصلية. فعوضاً عن سؤال "هل تعكس وسائل الإعلام الواقع أم لا؟"، أصبحنا نسأل "كيف تساهم وسائل الإعلام في تكوين معاني الواقع لدى الجمهور؟". وبهذا انتقلنا من نموذج "الاتصال كناقل للواقع" إلى "الاتصال كصانع للواقع". وهذا لا يعني إنكار وجود واقع مادي مستقل، لكنه يعني أن فهمنا لذلك الواقع وتعاملنا معه أمر يتشكل اجتماعياً.

خاتمة:

تلقي البنائية الاجتماعية الضوء على دور الاتصال في المجتمع، إذ تجعلنا ندرك أنه عبر التواصل نخلق واقعنا ونعيد انتاجه كل يوم. لقد أكدت أطروحة برغر ولوكمان أن "الواقع والمعركة عبارة عن بناء اجتماعي بناء اجتماعي"، وأظهرت كيف أن الحياة اليومية بما فيها من محادثات عادية وخطابات إعلامية تسهم في صقل التصورات الجماعية للواقع. فكثير من المسلمات ربما ليست وقائع موضوعية بقدر ما هي نتاج اتفاق وتكرار اجتماعي. إن وعي الباحث بهذه الحقيقة يسمح له بتحليل الظواهر الاتصالية ليس فقط كوسيلة نقل معلومات، بل كعملية بناء معاني وقيم. وفي النهاية، يدعونا المنظور البنائي إلى التساؤل: أي واقع نبنيه اليوم عبر طرق تواصلنا؟ ومن يتحكم في سرديات الواقع المهيمنة في مجتمعاتنا؟ هذه أسئلة إبستمولوجية جوهرية تساهم في فهم أعمق لدور الاتصال في تشكيل عالمنا الاجتماعي.

المحاضرة السابعة: الإبستمولوجيا النقدية: مدرسة فرانكفورت ودراسات الاتصال.

مقدمة:

برزت مدرسة فرانكفورت في ثلاثينيات القرن العشرين كتجمع لنخبة من الفلاسفة وعلماء الاجتماع (مثل Marcuse، Adorno، Horkheimer ولاحقا Habermas) الذين طوروا ما يُعرف بالنظرية النقدية، التي تمثل هذه إبستمولوجيا نقدية تختلف عن المناهج التقليدية بتركيزها على نقد المجتمع وكشف علاقات القوة الكامنة في الثقافة والمعرفة. وفي حقل الاتصال، قدمت مدرسة فرانكفورت واحدة من أولى التحليلات النقدية لوسائل الإعلام والثقافة الجماهيرية، فنظرت إلى الاتصال الجماهيري كأداة ممكنة للتحرر أو للهيمنة الاجتماعية. في هذه المحاضرة سنستعرض باختصار أسس الإبستمولوجيا النقدية كما صاغتها مدرسة فرانكفورت، ثم نوضح تطبيقاتها في دراسات الاتصال: من نقد "صناعة الثقافة" لدى أدورنو وهوركهايمر إلى إسهامات هابرماس في فهم الفضاء العام الاتصالي. سنرى كيف تطرح النظرية النقدية فهما للمعرفة بوصفها غير محايدة بل مرتبطة بمصالح وقوى، وتدعو إلى استخدام المعرفة كوسيلة لتحقيق وعي نقدي وتحرير المجتمع من هيمنة الإعلام المسيطر والخطابات التضليلية.

1- أسس الإبستمولوجيا النقدية Critical Theory:

تتميز الإبستمولوجيا النقدية بعدة مبادئ:

- 1-1 الربط بين المعرفة والمصلحة: حيث يذهب هوركهايمر إلى التمييز بين النظرية التقليدية التي تفترض أن الباحث يمكن أن يكون محايدا ومنفصلا عن المجتمع، والنظرية النقدية التي ترى أن كل معرفة مرتبطة بمصالح (إما حفاظ على الوضع القائم أو تغييره).⁵⁸ وبالتالي، يدعو إلى وعي الباحث بقيمه وانحيازاته وتوجيه البحث نحو كشف التحيزات القائمة في المجتمع.
- 2-1 شمولية التحليل الاجتماعي: لا تكتفي النظرية النقدية بتجزئة الظواهر بل تحاول فهم البنية الاجتماعية ككل وعلاقتها بالاقتصاد والثقافة. لذا جمع مفكرو فرانكفورت بين التحليل الاقتصادي الماركسي والتحليل النفسي والثقافي لفهم المجتمع الحديث.⁵⁹
- 3-1 فكرة التنوير والتحرر: حيث يرون أن دور المعرفة والفلسفة هو تنبيه المجتمع إلى أشكال الظلم والقهر الخفية ودعم نضال التحرر (سواء كان طبقيًا أو ثقافيًا). المعرفة وفق هذا التصور ليست مجرد أداة للتفسير، بل أداة للتغيير.

ولقد أشار يورغن هابرماس لاحقا أن المعرفة تُخدم ثلاث مصالح بشرية أساسية: مصلحة تقنية (وراء العلوم الطبيعية لوصف العالم للسيطرة التقنية)، ومصلحة تواصلية/فهمية (وراء العلوم التأويلية لفهم

المعنى)، ومصلحة تحريرية (وراء العلوم النقدية لكشف القيود وتحرير الإنسان).⁶⁰ ويرى أن كلا من الوضعية والتأويلية وحدهما ناقص، ويجب إكمالهما بالمعرفة التحريرية التي تفضح التشوهات في التواصل (مثل الأيديولوجيات التي تمنع التواصل الحر). وهكذا فإن الإستيمولوجيا النقدية تؤكد أن المعرفة الاجتماعية الحقة هي التي تمتزج بالنقد (نقد المجتمع والذات) للوصول إلى فهم أقل تشويها للواقع.

2- مدرسة فرانكفورت ونقد الاتصال الجماهيري:

طبقت مدرسة فرانكفورت هذه المبادئ على تحليل وسائل الاتصال الجماهيرية في المجتمعات الرأسمالية الحديثة. ومن أشهر إسهاماتها هنا مفهوم "صناعة الثقافة" Culture Industry الذي قدمه Theodor W. Adorno وMax Horkheimer مؤكدان بأن الثقافة في عصر الرأسمالية المتأخرة تحولت إلى صناعة تنتج بشكل قياسي مثل أي سلعة أخرى، وتهدف إلى ضمان امتثال الجماهير وخضوعهم للقيم الاستهلاكية والسائدة.⁶¹ فالأفلام والموسيقى الشعبية والإعلانات وغيرها تُنتج بكميات كبيرة وبشكل متشابه، بحيث يتم برمجة أذواق الناس وتفكيرهم بشكل متجانس يخدم مصالح السوق والنظام القائم.⁶² كما لاحظا التشابه الكبير بين الترفيه الرأسمالي والدعاية الفاشية في قدرتهما على دمج الجماهير ضمن فكر موحد وإلغاء التفكير النقدي.⁶³ ويعتبر الجمهور في نظرهما متلق سلبي ومطواع، تقوم الصناعة الثقافية بحشو عقله بالمحتوى المتكرر والموجه، حتى تسلبه الخيال والنقد.⁶⁴ وقد أشارا بأن المنتجات الثقافية الجماهيرية تمنح المتلقي إشباعاً زائفاً يمنع من السعي لإشبعات أعمق أو للتمرد.⁶⁵ باختصار، الإعلام الجماهيري وفق هذا المنظور أداة لإدامة الوضع الاجتماعي الراهن من خلال الخداع والتسلية المخدرة.

على سبيل المثال، انتقد Adorno الموسيقى الشعبية والأفلام الهوليوودية لأنها كلها تتبع قوالب نمطية مكررة لا تتيح للمستمع أو المشاهد أي عنصر مفاجأة أو تحد فكري.⁶⁶ وحتى الأعمال التي تدعي الجودة أو الخيال في رأيه نهاياتها متوقعة وتغلق أي أفق للتفكير المختلف.⁶⁷ هذه الحالة سماها "خداع التنوير الجماهيري": حيث يبدو أن الجمهور متنور ومدرك بفضل الإعلام، لكنه في الواقع مغيب بفضل الرسائل المعلبة.

إلى جانب النقد السلبي، تحتوي النظرية النقدية أيضاً على رؤى إيجابية تحررية. ف Herbert Marcuse مثلاً تحدث عن إمكانات الفن الحقيقي والثقافة "الرفيعة" في تنمية الوعي النقدي والفردية (على عكس الثقافة الجماهيرية السائدة). كما تطرق Jürgen Habermas في عقود لاحقة إلى مفهوم الفضاء العمومي Public Sphere، معرفاً إياه كمجال اتصالي يمكن أن يجتمع فيه المواطنون للنقاش العقلاني حول قضاياهم بمعزل عن تحكم الدولة أو السوق. واعتبر نشوء الفضاء العمومي البرجوازي في القرن الـ 18 إنجازاً تنويرياً سمح بتكوين رأي عام مستقل نسبياً. لكنه حذر أن هذا الفضاء يتعرض للتآكل في العصر الحديث تحت

ضغط الإعلام التجاري والدعاية، مما أدى إلى "تخلخل التواصل" وفقدان الحوار العقلاني المجدي. وهذه أيضا نظرة نقدية لكيفية تخريب قوى المال والسياسة للاتصال الحر في المجتمع.

3- المعرفة التواصلية والتحرر:

رأى هابرماس أنه يمكن إعادة بناء نظرية نقدية للمجتمع تركز على مفهوم الفعل التواصلية. واقترح أن التحرر في المجتمعات الحديثة يكمن في تحقيق تواصل خالٍ من التشوهات، حيث يستطيع الأفراد التحدث والوصول إلى تفاهم دون هيمنة أو قيود غير معلنة (كالإيديولوجيا أو القوة السلطوية). هذا يقود إلى إبستيمولوجيا خاصة: إذ تصبح المعرفة ذات البعد التواصلية (أي تلك المتوصل إليها عبر النقاش الحر) هي المعرفة الأوثق للتوافق والحقيقة الاجتماعية. أما المعارف المفروضة بالقوة أو المهيمنة عبر الإعلام الأحادي فهي مشوهة وتحتاج للنقد.

وفي مجال بحوث الاتصال، شجع هذا المنظور على تطوير اتجاهات مثل دراسات الاقتصاد السياسي للإعلام التي تحلل ملكية وسائل الإعلام وربحية الصناعة الثقافية وتأثير ذلك على المحتوى (مثلا: كيف تؤدي ملكية بضع شركات عملاقة لمعظم وسائل الإعلام إلى تضيق نطاق الآراء). وكذلك دراسات تحليل الخطاب الأيديولوجي التي تكشف الرسائل الضمنية المروجة عبر الإعلام والتي تخدم مصالح القوى المهيمنة (مثل تعزيز النزعة الاستهلاكية، تكريس صور نمطية عن الأقليات... إلخ). كل هذه تطبيقات للإبستيمولوجيا النقدية في الاتصال، حيث لا يُنظر للمحتوى الاتصالي على أنه معلومات بريئة، بل نتاج صراع مصالح يجب التنبيه له.

خاتمة:

أضافت الإبستيمولوجيا النقدية بُعدا بالغ الأهمية لدراسة الاتصال، فبدل الاقتصار على "كيفية" التواصل و"نتائجه" الظاهرة، صار الباحث يُسأل أيضا لمصلحة من يتم التواصل وبأي شروط؟ لقد أظهرت مدرسة فرانكفورت أن المعرفة والاتصال يمكن أن يكونا أدوات هيمنة كما يمكن أن يكونا أدوات تحرر.⁶⁸ ومع أن بعض طروحات فرانكفورت (كفكرة الجمهور السلبي بالكامل) تعرضت للنقد والمراجعة، إلا أن جوهر دعوتهم (التمثل في استخدام المعرفة لفهم وتغيير المجتمع نحو الأفضل) لا يزال ملهما.

المحاضرة الثامنة: إبستمولوجيا ما بعد الحداثة والاتصال: التفكيك والسيولة.

مقدمة:

شهد أواخر القرن العشرين تحولاً نحو ما يسمى فكر ما بعد الحداثة، الذي يتسم بالتشكيك في السرديات الشمولية والحقائق المطلقة، وإبراز النسبية وتعدد القراءات. وهذا يعني من الناحية الإبستمولوجية، انتقالاً من اليقينيّات الكبرى إلى التساؤل عن مدى استقرار المفاهيم الأساسية كالواقع والحقيقة والمعرفة. في هذه المحاضرة سنركز على مظهرين رئيسيين من إبستمولوجيا ما بعد الحداثة وتأثيرهما على فهم الاتصال: التفكيك (Deconstruction) والسيولة (Liquidity).

يشير التفكيك (كمنهج ابتكره Jacques Derrida) إلى تحليل النصوص والخطابات لكشف تناقضاتها الداخلية والمعاني المضمرّة، مما يزعزع أي ادعاء بامتلاك معنى واحد نهائي.⁶⁹ أما "السيولة" فهو مصطلح يستخدمه علماء مثل زيغمونت باومان لوصف حالة الحداثة المتأخرة حيث أصبح كل شيء (من الهويات إلى العلاقات إلى المعرفة) مرناً ومتغيراً باستمرار، أي "سائلاً" لا يحتفظ بشكل ثابت.⁷⁰ سنتناول في هذه المحاضرة هذين المفهومين وكيف يؤثران على نظرتنا للاتصال: فالتفكيك يقدم طريقة نقدية لفهم الرسائل الإعلامية والنصوص التواصلية على أنها متعددة الدلالات وقابلة للقراءات المتباينة، والسيولة تصف البيئة الاجتماعية المعاصرة التي يتحرك فيها الاتصال، حيث تختفي الحدود الصارمة وتزداد اللامركزية في إنتاج المعرفة وتداولها.

1- التفكيك: المعنى والنص المفتوح.

نشأ التفكيك كفلسفة وكتقنية تحليل على يد الفيلسوف الفرنسي Jacques Derrida في أواخر الستينيات. يقوم على فكرة أن النصوص (بالمعنى الواسع: أي خطاب أو رسالة) لا تمتلك معنى ثابتاً أحادياً، بل تحمل في طياتها تناقضات وإشارات لما تم إسقاطه أو كبته، ويمكن عبر قراءة متأنية كشف الثغرات والفجوات في البناء النصي.⁷¹ وأظهر دريدا أن اللغة ذاتها غير مستقرة، أي أن كل مفهوم يعتمد على مفاهيم معاكسة ومختلفة ولا يمكن تثبيته في حضور معنى واحد.⁷² فالتفكيك إذن عبارة عن عملية كشف ازدواجيات المعنى وزعزعة اليقين في أي نص. وليس الهدف تدمير المعنى، بل إظهار تعدديته وإرجاء أي ختم نهائي له. فيصبح أي نص قابل لقراءات لا نهائية.

وفي مجال الاتصال، يوفر التفكيك أداة قوية لتحليل محتوى الإعلام والخطاب السياسي والإعلاني وغيرها. فعند تطبيقه، نسأل ما الافتراضات أو الثنائيات التي يركز إليها هذا الخطاب؟ (مثلاً: ثنائية "خير/شر" في خطاب سياسي). ثم نحاول تتبع أين يتعارض النص مع هذه الثنائيات أو يقوّضها بنفسه، أو

ما الذي يستبعده من نطاق حديثه. مثلا، خطاب إعلاني قد يمجّد منتجا ما عبر ثنائية "طبيعي/اصطناعي"، لكن التفكير قد يكشف أن ما يسمى "طبيعي" في الإعلان مشروط بعوامل تسويقية تجعله اصطناعيا بحد ذاته، أي يهدم المعارضة بين الطبيعي والاصطناعي التي يدعيها.⁷³ بهذا نرى أن الإعلان يحمل معنى مضمرا (كالتلاعب بمخاوف الجمهور من المواد الصناعية) وراء معناه الظاهر.

كذلك، التفكير يعلمنا أنه لا توجد قراءة نهائية لرسالة اتصالية. فمن منظور ما بعد الحداثة، الجمهور ليس متلقيا سلبيا يلتقط معنى واحدا، بل يملك القدرة على إعادة تفسير الرسائل بطرق مختلفة وفق مرجعياته. وهذا يلتقي مع نظرية التلقي الحديثة في دراسات الإعلام التي تؤكد تنوع تأويلات الجمهور.

2- سيولة ما بعد الحداثة:

صاغ عالم الاجتماع Zygmunt Bauman مفهوم "الحداثة السائلة" Liquid Modernity لوصف التحولات الاجتماعية والثقافية في العقود الأخيرة. يجادل باومان بأننا انتقلنا من مرحلة "صلبة" نسبيا (كان فيها المجتمع منظما بثوابت مثل مؤسسات مستقرة وهوية واضحة) إلى مرحلة "سائلة" تسودها الهشاشة والتغير الدائم.⁷⁴ في العالم السائل، لا شيء يحتفظ بشكله طويلا: الوظائف لم تعد دائمة، العلاقات الشخصية مؤقتة، الأفكار والمعارف تتغير بسرعة، وحدود المجتمعات والثقافات أصبحت مختزقة بفعل العولمة. يشعر الأفراد باللايقين المستمر، فلا سردية جامعة تفسر العالم، ولا مؤسسة تضمن الأمان التام.⁷⁵ هذا الجو السائل يمتد ليشمل المعرفة والاتصال، حيث تتزايد المعلومات لكن ثقتنا بها تقل، وتتوسع شبكات التواصل لكن الروابط فيها ضعيفة أو آنية.

وفي سياق الاتصال، يمكن ملاحظة مظاهر السيولة في أمور عدة، مثل انهيار الحدود بين المرسل والمستقبل في عصر وسائل التواصل الاجتماعي، إذ بات الجمهور منتجا للمحتوى وتغيرت معالم العملية الاتصالية الصلبة القديمة (مرسل، رسالة، مستقبل). كذلك تضائل هيمنة المؤسسات الإعلامية المركزية، فبينما كان الناس يعتمدون على عدد محدود من القنوات الإخبارية "الصلبة"، أصبحوا الآن يغترفون المعلومات من منصات متعددة ومتغيرة (فيسبوك، تويتر، مدونات... إلخ)، ما يجعل المشهد المعرفي مبعثرا وسريع التحول. هذا التنوع له جانب إيجابي من الحرية والتعدد، لكنه يحمل أيضا فوضى ما بعد حداثة: معلومات زائفة تنتشر، صعوبة في التحقق، اختلاط الجد بالهزل، الأخبار بالترفيه. وهو ما دعا البعض لوصف عصرنا بعصر "ما بعد الحقيقة" حيث لم يعد واضحا ما هو الواقع وسط تدفق الخطابات.⁷⁶

باختصار، بيئة الاتصال في عصر ما بعد الحداثة يغلب عليها التدفق والتغير المستمر. وهذا يتطلب إستيمولوجيا مواكبة: كيفية تحقيق معرفة موثوقة وسط اللايقين؟ ما معايير الحقيقة حين تتعدد وجهات

النظر بلا مرجعية ثابتة؟ هنا يبرز دور النقاش النقدي والتربية الإعلامية كي يطور الأفراد مهارات تمييز المعلومات وتحليل الخطابات المتعددة.

خاتمة:

لقد قدمت إستيمولوجيا ما بعد الحداثة منظورا تحذيريا ومحررا في آن واحد. حذرتنا من الوثوق الزائد بالسرديات الإعلامية الأحادية وأظهرت أن المعنى قابل دائما لإعادة القراءة والتأويل.⁷⁷ كما وصفت واقع الاتصال في زماننا بأنه واقع مائع يتغير باستمرار ولا يخضع لسلطة مركزية ثابتة.⁷⁸

المحاضرة التاسعة: إشكالية الموضوعية والذاتية والتحيز في بحوث الاتصال: تحديات ابستمولوجية

مقدمة:

لطالما واجهت العلوم الاجتماعية عامة بما فيها دراسات الاتصال إشكالية التوازن بين الموضوعية والذاتية أثناء البحث. فالباحثون يسعون إلى الموضوعية، بمعنى تقديم صورة غير متحيزة ودقيقة عن الظواهر، لكنهم في الوقت ذاته يدركون أن الذاتية، بمعنى تأثير مشاعرهم وخلفياتهم وتصوراتهم وكذلك خصوصية الموضوع الإنساني أمر لا مفر منه. في هذه المحاضرة نناقش هذا الإشكال المحوري: ماذا نعني بالموضوعية والذاتية والتحيز في البحث الاتصالي؟ هل يمكن تحقيق موضوعية تامة؟ وكيف تؤثر الذاتية على نتائج البحوث إيجاباً أو سلباً؟ كما سنتناول بعض المناهج التي طُورت للتعامل مع هذه الثنائية مثل ما بعد الوضعية والبحوث المختلطة، والتي تعترف بصعوبة تحقيق الموضوعية المطلقة وتسعى بدلاً من ذلك إلى تقليل التحيز وتقوية موثوقية المعرفة.

1- تعريف الموضوعية والذاتية في البحث:

تشير الموضوعية في أبسط تعريف أن النتائج تعكس الواقع كما هو بدون تحريف من قبل آراء الباحث أو مشاعره. فالنتائج الموضوعية يفترض أن تكون قابلة للتحقق بشكل مستقل، أي لو أجرى باحث آخر بنفس الظروف التجربة أو الدراسة لحصل على نتائج مماثلة. لذا ترتبط الموضوعية بمفاهيم مثل الحياد والتجرد. أما الذاتية فتعني أن النتائج أو الملاحظات متأثرة بمن يقوم بها، فهي شخصية، نابعة من منظور محدد وربما متحيزة بفعل قيم أو توقعات معينة.

لذلك، يسعى الباحثون لتقليص تأثير تحيزاتهم الشخصية عبر "الصرامة المنهجية". في المقابل، يعترف الكثيرون اليوم أنه لا يمكن التخلص كلياً من الذاتية. فاختيار موضوع البحث ذاته ينبع من اهتمامات الباحث وقيمه، كما يتأثر تفسير البيانات بخلفيته النظرية.

2- الموضوعية في بحوث الاتصال:

في حقول كالفيزياء أو الكيمياء، تبدو إمكانية تحقيق درجة عالية من الموضوعية أسهل (رغم وجود فلسفات علم تشكك حتى بذلك). لكن في الاتصال ندرس البشر وتفاعلاتهم الرمزية، الأمر الذي يجعل الموضوعية أكثر صعوبة. مثلاً، عندما نحلل مضمونا إعلامياً بحثاً عن عنصرية أو تحيز، قد نتأثر نحن بتصوراتنا عما هو عنصري أو غيره. وحتى لو اتبعنا دليل ترميز دقيق في تحليل المحتوى، يظل المرمز (الباحث الذي يشفر البيانات) بشراً معرضاً لتفسير المعاني بشكل مختلف عن مرمز آخر.

لذلك، ينبغي أن يسعى الباحث الكمي مثلاً إلى زيادة الموضوعية عبر طرق مثل توحيد أدوات القياس، والتحقق من الصدق والثبات إحصائياً (كحساب معامل اتفاق بين محللين في تحليل المحتوى لضمان موضوعية أعلى). ورغم أن هذه الإجراءات مهمة، لكنها لا تقضي تماماً على الذاتية. لذا طورت مناهج لتحسين الأمر مثل التثليث Triangulation أي استخدام مناهج مختلفة ومصادر بيانات متعددة، فإذا اتفقت النتائج من زوايا مختلفة يزداد اطمئناننا لموضوعيتها.

ومع ظهور الفلسفة ما بعد الوضعية، أصبح مقبولا عموماً القول بأن الموضوعية المطلقة مستحيلة.⁷⁹ فحتى تصميم التجربة واختيار ما نرصده يتشكل بنظرية الباحث ورؤيته. بالتالي يُنظر الآن للموضوعية على أنها متصل Continuum، نسعى لنقترب من طرفه قدر الإمكان عبر الشفافية والصراحة المنهجية، دون أن ندعي بلوغه تماماً⁸⁰.

3- تأثير الذاتية والتحيز في بحوث الاتصال:

يعد التحيز Bias الجانب السلبي للذاتية، حين تؤدي توجهات الباحث المسبقة إلى ميل منهجي للنتائج باتجاه معين. على سبيل المثال: قد يفضل الباحث فرضية معينة (ربما دون وعي) فيصمم دراسته بطريقة تزيد فرص تأكيدها، كأن يطرح أسئلة توجيهية على المبحوثين. أو في تحليل محتوى، قد يبرز أمثلة تناسب فكرته ويتجاهل أخرى. هذا النوع من التحيزات يشكل خطراً على صدق البحث العلمي.

4- أنواع التحيز: توجد أنواع عديدة من التحيز من بينها:

أ- التحيز الثقافي: تفسيرات الباحث المتأثرة بثقافته (باحث غربي قد يسيء فهم دلالات تواصلية في مجتمع شرقي إذا لم ينتبه).

ب- تحيز التأكيد: ميل الباحث لإعطاء وزن أكبر للملاحظات التي تؤيد فرضيته وتجاهل ما يخالفها.

ت- تحيز صياغة السؤال البحثي: قد يصاغ سؤال البحث بطريقة توجه ضمناً نحو نتيجة معينة. مثلاً: سؤال "لماذا يسبب الإنترنت العزلة الاجتماعية؟" يفترض سلفاً أن الإنترنت يسبب العزلة بدل أن يكون سؤالاً مفتوحاً حول العلاقة. هذه الصياغة المتحيزة تقود البحث لإثبات فرضية محددة وتتجاهل احتمال نتائج مغايرة.

ث- تحيز العينة: إذا لم تكن عينة الدراسة ممثلة بما يكفي، فقد تكون النتائج منحازة. مثلاً، دراسة عن استخدام الهواتف الذكية أجريت عبر استبيان إلكتروني قد تستبعد كبار السن أو ذوي الدخل المحدود الذين يقل استخدامهم للإنترنت، مما يجعل النتائج منحازة نحو فئة الشباب الحضرين. هذا التحيز في الاختيار يشوه الواقع المستهدف.⁸¹

ج- تحيز أداة القياس: أسئلة الاستبيان أو فئات تحليل المحتوى قد تكون منحازة. مثال: في استبيان عن تأثير الإعلام على الآراء السياسية، صيغة سؤال مثل "هل أقنعتك وسائل الإعلام بفكرة X؟" تحمل تحيزاً لأنها تفترض أن الإعلام له تأثير إقناعي قوي وتعطي خياراً بسيطاً (نعم/لا) قد لا يعبر عن التدرج الفعلي في التأثير.

ح- التحيز أثناء جمع البيانات: في المقابلات المتعمقة، يمكن للباحث بتعبيراته الجسدية أو نبرة صوته إظهار الموافقة أو الاستحسان لبعض الإجابات دون غيرها، مما يشجع المستجيب على إعطاء إجابات ترضي الباحث. هذا نوع من التحيز التفاعلي⁸².

خ- التحيز أثناء التحليل: قد يميل الباحث لإبراز أنماط توافق توقعاته وتجاهل بيانات مخالفة. أيضاً في التحليل النوعي، يمكن للتحيز التفسيري أن يظهر عندما يفسر الباحث تصريحات المشاركين من منظور محدد ضيق، متجاهلاً سياقات قد تؤدي لتفسيرات أخرى.

د- التحيز في التقرير والنشر: هناك ظاهرة معروفة تدعى "انحياز النشر" Publication bias حيث تميل المجلات إلى نشر الدراسات ذات النتائج المثيرة وتجاهل دراسات أخرى. هذا يترك الباحثين بتصور منحاز عن الأدلة المتاحة في ميدان ما، لأن النتائج غير المنشورة (رغم أهميتها) غير مرئية.⁸³ ففي الاتصال مثلاً، قد نجد أن بحوث "ثبت فيها تأثير قوي لوسائل التواصل" تنشر على نطاق واسع، بينما بحوث لم تجد تأثيراً لا تحظى بالاهتمام نفسه.

5- التأثير الإبيستيمولوجي للتحيز:

من منظور إبستيمولوجي، وجود تحيز يعني أن المعرفة المستنتجة لا تعكس الواقع بدقة، وبالتالي فهي معيبة. فإذا تراكمت دراسات كثيرة حول موضوع معين وكانت جميعها (بوعي أو بغير وعي) تحمل تحيزات مشابهة، سنجد أن الفهم العلمي لذلك الموضوع منحرف بشكل ممنهج. مثلاً، فلو كانت مثلاً معظم بحوث تأثير الألعاب الإلكترونية على العنف متحيزة (إما عبر عينات غير ممثلة أو باحثين مقتنعين سلفاً بوجود التأثير)، قد يظهر لنا تراكم معرفي مزيف يوحي بأن "الألعاب تزيد العنف قطعاً"، بينما الحقيقة ربما أكثر تعقيداً أو حتى معاكسة.

وهذا يضر بعملية البناء المعرفي التراكمي، لأن العلم يفترض أنه مع تراكم الدراسات نقرب أكثر من الحقيقة. لكن التحيز المنهجي قد يجعل التراكم يقربنا من وهم متماسك لكنه خاطئ. لذا إدراك التحيز وتصحيحه ليس مجرد مسألة تقنية، بل ضرورة إبستيمولوجية لضمان أن نظرياتنا واستنتاجاتنا صالحة.⁸⁴

كما أن التحيزات تؤثر على عدالة المعرفة، لأنها قد تؤدي إلى تهميش أصوات أو تجارب معينة. مثلا، انحياز الباحثين نحو عينة من سكان المدن قد يعني أن رؤى سكان الريف غير ممثلة، ما ينتج معرفة غير شاملة وغير عادلة تجاه شرائح المجتمع. هذا الجانب كشفت عنه بشدة دراسات نسوية وما بعد استعمارية، حيث أشارت إلى أن كثيرا من البحوث كانت تاريخيا منحازة لصوت الرجل الغربي الأبيض، وتجاهلت تجارب النساء والأقليات، ما أدى لصورة ناقصة ومنحرفة عن الواقع العالمي.⁸⁵

6- أساليب التخفيف من التحيز في البحث العلمي:

لمكافحة التحيز، تطورت عدة ممارسات في المجتمع العلمي، لعل من أهمها:

أ- التثليث: الجمع بين أسلوب كمي وأساليب كيفية في نفس الدراسة. مثلا، إجراء تحليل محتوى كمي لمضامين إعلامية يتبعه مقابلات متعمقة مع الجمهور حول تأويلهم. تتيح هذه المقاربة فهما أشمل وأكثر تكاملا للموضوع.⁸⁶

ب- التحقق بين المقيمين: في تحليل البيانات الكيفية، يعرض الباحث تحليله على زملاء أو المشاركين أنفسهم أحيانا للتأكد من أنه لم ينحرف كثيرا بتأويلاته الخاصة.⁸⁷

ت- التدقيق أو المراجعة الخارجية: دعوة باحث مستقل لمراجعة منهج الدراسة ونتائجها بحثا عن نقاط ضعف أو تحيز.⁸⁸

ث- معايير المصدقية: مثل مصطلح "الموثوقية" بدلا من الموضوعية التقليدية. يتم تحقيق ذلك بالشفافية وإظهار مسار تحليل البيانات بالتفصيل.⁸⁹

ج- المقاييس الموحدة والموثوقة: استخدام أدوات قياس خضعت سابقا لاختبارات صدق وثبات عالية. فهذا يقلل احتمال أن تكون منحازة أو تفسر بطرق مختلفة من شخص لآخر.⁹⁰

ح- الإفصاح الشفاف: على الباحثين وصف منهجيتهم بالتفصيل والإفصاح عن أي ظروف قد تكون أثرت (مثل تمويل الدراسة، خلفية الباحث). الشفافية تتيح للقراء تقييم جودة النتائج وأخذ الحيطة إن وجدوا احتمال تحيز.⁹¹

خ- الإحصاء المتقدم: بعض التقنيات الإحصائية يمكنها الكشف عن تحيزات العينة أو التحيزات في إجابات المستجيبين (مثلا وجود نمط إجابة متكرر بشكل غير طبيعي).⁹²

د- التدريب على الوعي بالتحيز: يمكن للباحثين أن يتدربوا خلال دراستهم على التفكير النقدي حول عملهم. يطرح المشرفون والزملاء أسئلة مثل "هل تأكدت أن هذا السؤال مفهوم بنفس الطريقة عند

مختلف الفئات؟ ألا يمكن أن تفسر النتيجة بأسباب أخرى لم تضعها في الحسبان؟". هذا الجو النقدي يساعد الباحث على رؤية تحيزاته العمياء.

خاتمة:

يمثل التحيز في بحوث الاتصال تحديا إبستمولوجيا، لأن وجوده يهدد صحة المعرفة ومصداقية العلم . لكن الوعي المتزايد بأنواع التحيز ووجود ثقافة علمية تعترف بعدم إمكانية الكمال الموضوعي أدى إلى تطوير أدوات فعالة للحد منه وكشفه.⁹³ فعلى أن يعي منذ البداية أن الحياد العلمي هدف صعب لكنه قابل للتحقيق جزئيا عبر الالتزام بالمنهجية الدقيقة والنقد الذاتي. وعليه أيضا أن يكون ناقدًا لمصادر المعرفة، فيحرص على فحص احتمالات تأثر نتائج الدراسة بتحيزات في التصميم أو التنفيذ. من خلال هكذا وعي وأدوات، نستطيع تحسين جودة البحوث باستمرار، فنقترب أكثر فأكثر من تقديم نتائج صادقة ومتوازنة، دون أن نضل أنفسنا أو مجتمعنا بانعكاسات مشوهة ناتجة عن تحيزات خفية.

قائمة المراجع: